بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــــل

بدأت هذا الكتاب على أن يكون صوراً من البطولة العربية فحسب ، ولكنى رأيت أثناء الكتابة أننى لابد أن أتناول صوراً من البطولة غير العربية ، لأننا لا نستطيع أن نفصل العرب عن بقية العالم ، فبدأت فى تناول شخصيات غير عربية ، ولكن أثرها على العرب عظيم ، فنحن لا نستطيع أن نهمل ترفانتيس مؤلف كتاب الدون كيخوتى الذى يعتبر من أعاظم الكتب العالمية وكذلك كتاب غراميات، وعلى ذلك أصبحت الشخصيات عربية وغير عربية وأصبح الكتاب جميلاً متكاملاً وهاهو ذا بين يديك تستطيع أن تستمتع به ، وأحسست أن الناس أحبت الكتاب إذ أن طبعته نفدت فطبعته للمرة الثانية فى نفس العام. وها أنت ذا ترى طبعته الثالثة وأرجو أن تعجبك أيضاً .

ومثل هذا الكتاب عسير جداً لأن كل فصل منه لابد أن يكون وكأنه كتاب مستقل وأنت لابد أن تقرأ الكتاب قراءة تامة لكى تكتب ملخصاً محترماً .. لهذا فإن ذلك الكتاب يعتبر من أعاظم كتبى وأهمها وأرجو ألا تظن من هذا الكلام أننى مغرور بكتبى ولكن الحقيقة أننى أعرفك بقدر الكتاب ، لأن الكتب عندى ليست مجرد كتب بل هى دراسات .

هذه مقدمة صغيرة أرجو أن تعجبك لأننى أهتم جداً بكتبى وأبذل فى كتابتها جهوداً ضخمة ، والله سبحانه وتعالى معين على ذلك .

والســـلام،،،

د . حسين مؤنس

١٩٩٢/٤/٢٨

obeikandl.com

فكرة الكتاب

هذه الصفحات أعرض فيها صوراً من حياة طائفة من الناس وفقهم الله إلى تيمم الهدف الأسمى للإنسان من حياته ، وهو إسعاد الناس . وليس لى من وراء هذا العرض إلا غاية واحدة ، هى أن يعلم الناس أن امتياز إنسان على إنسان غيره من الناس فى خصلة من الخصال ، أو اقتداره على القيام بأعمال كبار تشتغل بها أذهان معاصريه ، أو تصديه لأنداده وخصومه ومغالبتهم طلباً للنصر والظفر .. كل أولئك أمور لا تهيىء للإنسان مكاناً بين العظماء أو الأبطال أو الخالدين ، لأن العظمة الحقة هى خدمة الخير ، والبطولة الحقة هى تضحية الإنسان نفسه فى سبيل الناس ، والخلود الحق إنما يكون فى قلوب البشر .

وكأيِّنْ من رجل وُهب من الذكاء ما يكاد أن يستشف به حجب الغيب، ومن الاقتدار ما يهز به الأرض هزاً ، فلا يزال يغالب الناس ويستذلهم ، ويتعاظم عليهم ويروِّع أمنهم حتى يمضى عنهم وكأنه كان إعصاراً خبيثاً اقتلع شجراً ههنا وهدم داراً ههنا ، وأثار موجاً هنا وأغرق سفيناً هناك ، ثم مضى مخلفاً وراءه الخراب والآلام فى حيث كان !

وكأيِّن من رجل بسيط لم يكن أحد من أهل عصره ليحفل له ، أنفق أيامه فى دأب متصل عادت جدواه من بعده على الناس أجمعين ؛ كهذا الطبيعى المصرى الحسن بن الهيثم قضى حياته يجرب فى الهندسة والبصريات ويشقى بعنت معاصريه وأنداده ، حتى لقد قضى معظم أيامه مشرداً أو سجيناً ، ثم مضى وقد خلف وراءه للإنسانية من الخير مالم يخلِّفه المئات من عظماء عصره وأصحاب الجاه فى أوانه .

وكهذا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى : قضى حياته يسجل أحداث عصره ويلقى فى سبيل ذلك من الوصب ما يعرفه كل من ألم بطرف من حياته ، ثم مضى وقد خلف لنا من التراث مالم يوفق إليه أنداده ممن أنفقوا أعمارهم فى طلب الجاه والسلطان .

وكهذا الكيميائى الفرنسى لوى باستير : قضى العمر مجرباً باحثاً يتعقب الميكروب فى صبر وجلد يهزان النفس هزاً ، ولقى من عداء معاصريه وتخذيلهم إياه ما كان حرياً أن يعدل به عن هذا المطلب الأسمى ، ولكنه مضى يعمل فى سبيل خير الناس حتى فتح لهم الله على يديه من آفاق الخير والسعادة ما ينعم به اليوم كل إنسان .

وكهذه الأجيال من طلبة العلم وهواة الفنون والصناع والزراع وأهل الحرف التى يسرت للناس ـ بجدها الدؤوب المتصل ـ العيشَ على هذه الأرض ، لا يقلل من عظمتها بساطة أعمالها واندراج أفرادها فى ألفاف النسيان ، لأن آثار أعمالها إنما هى تراث مطلق للبشر أجمعين . ونحن لا يعنينا فى تقدير الناس أن يكونوا من ذوى العبقريات النادرة ، وإنما بحسبنا أن يكون الواحد منهم قد ساهم مخلصاً فى تحسين ظروف الناس على وجه الأرض بأبسط نصيب لكى نضعه بين بناة التاريخ .

والحضارة لم تبنها العبقريات بقدر ما بنتها المساهمات المتواضعة التى قدمها أناس مجهولون ، مازال كل منهم يضيف جهده إلى جهود الآخرين حتى ارتفع صرح الحضارة البشرية على أكتافهم شامخاً ، وَمَثلهم فى ذلك مثل الجنود فى جيش : يساهم كل منهم فى المعركة بشىء يسير جداً ، وتجتمع هذه الأشياء اليسيرة ليكون منها النصر العظيم .

وليس يحتاج الإنسان إلى أن يكون موهوباً خارق الذكاء ولا نادر المواهب لكى يكون عظيماً ، وإنما يكفى أن يكون إنساناً ذا قلب حى يشعر بأن الحياة لا تكون حياةً إلا إذا أُنفقت فى جهد متصل فى سبيل الخير ، وأن الإنسان الجدير بلقمة العيش التى يتبلّغ بها هو الذى يؤدى حقها بالعمل الدؤوب على قدر ما تساعف الظروف ، لأننا على هذه الأرض لنعمِّرها ونجملها ، لا لطِلاب الراحة والنعيم ، ولأن الله خلقنا لنشكر آلاءه علينا بالعمل فيما فيه خير الأرض وخير أهلها . والعمل عبادة ، وطِلاَبُ الخير سيادة . ولن تجد إنساناً ذليلاً ساعياً فى خير أبدا ، ولن تجد إنساناً ذا همة وجِدّ وقصدٍ للخير إلا عزيزاً أبداً متفضلاً أبداً ، ولو بدا لنا عمله بسيطاً متواضعاً : ليكن خبازاً أو بناء ، وليكن زارعاً أو صانعاً ، فلن تجده إلا كريما حراً ، لأنه قوة من قوى الخير والرخاء ، ولأن الناس لن يؤدوا إلا جانباً يسيراً من حقه عليهم ؛ فهو صاحب فضل وصاحب خير ، وهذا فى عرفنا هو العظيم .

على هذا الأساس تخيرت هذه الحفنة من العظماء الذين أعرض عليك بعض جوانب حياتهم فى هذا الكتاب ، ليس فيهم واحد إلا تصدى لعمل كريم يعود خيره على الناس أجمعين ، أفنى فيه نفسه وأنفق أيامه صابراً متجلداً راضياً بما لقى فى سبيله من الإعنات والأذى ، لأن إيمانه بالعمل وحرصه على خير الناس صرفاه عن التفكير فى أمر نفسه ، وخلقا له عالماً داخلياً حافلاً ، هو أجمل عنده وأغنى من عالم الناس الذى عاش فيه .

وقد مضى وفات ذلك الزمان الذى كان الناس يرددون فيه بالإعجاب البالغ بيتى أبى الطيب :

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه فى مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بناة الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله فى ذلك البنا.

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك فى الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنمُلُه العشر

حاسبين أن هذا الكلام إنما هو لباب فلسفة الحياة ، وما هو فى الواقع إلا كلام حسن الصياغة لم يصدر عن إيمان بالخير أو حب للناس .

نعم ، مضى زمان الفتكات البكر والصيت المدوى الذى لا يغر إلا كل فارغ النفس سقيم الوجدان .

مضى ذلك الزمان وأقبل زمان العمل الكريم والخير المتصل ، ولم تعد الدنيا للمحارب الفاتك وإنما للعامل الكريم المخلص الذى يعمل على توفير الخير على قدر ما يستطيع .

وقد يبدو أننى خالفت هذه القاعدة فيما ذكرت من سير أبطال محاربين ، من أمثال تحتمس الثالث وبطليموس الثالث الملقب بيورجيتيس وآخيل والإسكندر العظيم ، ولكن الحقيقة أننى التزمتها فى هذه التراجم ولم أغفلها ، لأننى لم أذكرها لأمجد انتصاراتهم وإنما للمعانى التى قصدوا إليها من وراء الحروب .

فتحتمس الثالث رائد من رواد الحرية فى التاريخ ، وعلم من أعلام الحضارة الإنسانية حمى بلاده ورد عوادى الأعداء ، وحمل نور الحضارة المصرية إلى آسيا ، ووصل بمجد

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه فى مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بنَاة الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله فى ذلك البناء .

وكذلك الإسكندر ، لم أذكره للفتوح العظيمة التى قام بها ، وإنما للفكرة العليا التى دفعته إلى خوض غمار الحروب ، فكرة مؤاخاة الشرق والغرب على بساط الحضارة والعمران.

وبطليموس الثالث ذكرته لمجد الفتح الذى قام به وحمل به حضارة مصر وحضارة الإغريق إلى حدود الهند ، وذكرته لأنه بطل مصرى مجهول ، وواحد من الكثيرين الذين ساهموا فى بناء وطننا ، وهو أعز شىء فى هذا الوجود .

تخيرت هذه الصور جميعاً ـ مصرية وغير مصرية ـ مُثُلاً من الجهاد الكريم ، كى يؤمن من يقرؤها بجلال الخير وجلال الإيثار . ولكى أوجه نفوس قومى إلى الوجهة الوحيدة التى تهيىء لهم العيش الكريم العزيز الذى يرتجون ؛ هذه الوجهة هى الإيمان بأن الخير هو غاية الحياة العليا ، فمن آمن بذلك فقد أمن الذل والهوان ، ومن نسيه عاش فى ألفاف الخوف والعوز ، ولن ينجو به منهما بعد ذلك مال ولا جاه ولا صيت .

وليس إلى الشك سبيل فى أننا ـ نحن المصريين ـ كنا طوال تاريخنا من جنود الإنسانية ، ولاشك كذلك فى أن الناس عرفوا لنا فضلنا فى أحيان وأغفلوا أمره فى أحيان ، فعولت على إبراز بعض جوانب هذا الفضل الخافية ، وحرصت على أن أضيف بضع تراجم وصور من تاريخنا تؤكد للناس كريم مساهمتنا فى بناء صرح الحضارة الإنسانية .

تلك هى فكرة هذا الكتاب ، وعلى ضوئها أحب أن تقرأه ، لأنها لباب حياة كل واحد ممن سنستعرض قصصهم فى هذه الصفحات .

وقد قسمت هذه التراجم أقساماً ثلاثة :

الأول : صور من البطولة فى العصر القديم .

والثانى : صور من البطولة الإسلامية .

والثالث: صور من البطولة فى العصر الحديث ، بعضها أوروبى وبعضها أمريكى .

وختمت الكتاب بصورة لبطل مصرى كريم هو الأميرالاى محمد عبيد ، كما بدأته ببطل مصرى قديم هو تحتمس الثالث بطل مجدو .

وذيَّلْتُ الكتاب بثبت للمراجع : جعلت لكل فصل فى الكتاب مراجعه على حدة ورتبت الفصول ترتيباً زمنياً . ولما كانت هذه الصور قد كتبت فى فترات متباعدة وفى ظروف شتى فقد جاءت مراجع كل صورة بحسب المكان الذى كتبتها فيه ، ولست أشك فى أن معظم ما أوردته من الكتب الألمانية موجودة فى ترجمات إنجليزية أو فرنسية .

وقد تفضل بمعاونتى فى مراجعة تجارب هذه الطبعة صديقى الأستاذ يحيى سيد حسين والدكتور محمد زينهم فلهما خالص الشكر .

والحمد لله رب العالمين .

حسين مؤنس
مايو ١٩٩٢

obeikandl.com